

تقديم

حين اقتضت سنة الله في مخلوقاته أن يخلق من كل زوجين اثنين، إنما أراد سبحانه وتعالى أن تكون أعمال مخلوقاته الناجحة - المفلحة ثمرة تزواج " الزوجين ". وهذه سنة إلهية عامة تشمل عوالم الأفكار والأشخاص والحيوان والنبات والجماد. فلا ثمرة أو مولود في جميع هذه العوالم إلا بتزواج الفكرة مع التلقي، والأخذ مع العطاء، والذكر مع الأنثى، والموجب مع السالب، والمطر مع الأرض، والليل مع النهار.. وهكذا.

ولكن عمل هذه السنة الإلهية في عوالم الحيوان والنبات والجماد قائم على الحتمية والتسخير المطلق. أما عالم الإنسان الذي ابتلي - أي امتحن - بحرية الاختيار فلحريته خصوصية وهي أنها تقتصر على اختيار السبب وحتمية النتيجة. فالحرية للإنسان مضمونة في اختيار الجهل؛ ولكن ليس له الحرية بعد ذلك في تجنب التخلف المتولد عن هذا الاختيار. وحرية الإنسان مضمونة في تناول السم ولكن ليس له الحرية في تجنب الهلاك بعد تناوله، والحرية مضمونة للأمة أن تختار وحدة الصف أو تمزيقه؛ ولكن ليس لها الحرية بعد ذلك باختيار النصر أو الهزيمة، والعز أو الذل. ويضرب القرآن الكريم مثلاً بالقوم الذين ظلموا أنفسهم فاختاروا أن يزرعوا حرثهم في فصل أصابها فيه ريح فيها صر - أي برد وصقيع - فلم يستطيعوا تجنب هلاك تلك المزروعات . وهكذا في كل ممارسات الإنسان وإنجازاته؛ هو يملك أن يختار مبادرة الأسباب ولكن الله يلزمه بالنتائج المترتبة على اختياراته.

على أن أوضح تطبيقات " سنة الزوجية " في حياة الإنسان تتجسد في علاقة الرجل بالمرأة. فحين يعمل غرور القوة عمله في نفس الرجل ويختار أن يمارس البناء والإصلاح دون التزواج مع امرأة تماثله في المعلومات والإرادات؛ فإن نتائج عمله تبور وجهوده لا تثمر. وهذا يعني أن بناء المجتمعات وتشديد الحضارات إنما يتحقق بتكامل الزوجين الاثنين: الذكر والأنثى. فهذه سنة الله سبحانه وتعالى، ولن تجد لسنة الله تبديلاً، ولن تجد لسنة الله تحويلاً. وهذا هو النموذج الأسري والاجتماعي الذي طرحه القرآن الكريم وأحكم الرسول ﷺ تأويله - أي تحويله - إلى تطبيقات عملية.

وانطلاقاً من علاقة " التزواج " هذه أطلق القرآن الكريم على كل من عضوي

الأسرة القرآنية اسم " الزوج " - وليس الزوج والزوجة - وهذا اسم لم يطلقه على المرأة إذا لم تقم بينها وبين الرجل علاقة تزاوجية مثمرة؛ أي علاقة تماثل وتكامل في الفكر والإرادة والإنجاب والسلوك والعمل. فهو مثلاً لم يطلقه على نساء الرسل اللاتي لم يماثلنهم عقيدة وعملاً فقال: ﴿أَمْرَاتٌ نُوحٌ﴾ ﴿وَأَمْرَاتٌ لُوطٌ﴾ ولم يقل (زوج نوح) ولا (زوج لوط) ومثله قوله تعالى: ﴿أَمْرَاتٌ فِرْعَوْنُ﴾ ولم يقل (زوج فرعون) لأنها كانت مؤمنة استجابت لرسالة موسى عليه السلام، وفرعون كان عاصياً كافراً. ولذلك أيضاً خاطب آدم: ﴿أَسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ﴾ لأن حواء كانت تماثله وتتكامل معه فكراً وسلوكاً، وخاطب الرسول عليه الصلاة والسلام بأمثال: ﴿قُلْ لَا زَوْجَ لَكَ﴾ و﴿بَنِي مَرْصَاتٍ أَزْوَاجٌ﴾ لأنهن ارتقين إلى مستوى المسئولية التي تتطلبها صحبة الرسول ﷺ والعيش معه، ووصف سارة بأنها امرأة إبراهيم قبل إنجابها إسحاق وتحقيق الغاية من الزواج المتضمنة في قوله تعالى: ﴿فَسَاوُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ﴾.

وحين ندقق النظر في النموذج القرآني للمرأة؛ نجد أنها تتلخص في مجموعة من الحقائق المثبتة بشواهد التاريخ. فالمرأة هي حاضنة الرسل وسند الرسالات؛ كما تحدث عن أم موسى وأخته وزوجته ابنة شيعب، وامرأة فرعون، وعن مريم العذراء أم عيسى عليه السلام، وكما هو شأن هاجر زوج إبراهيم وأم إسماعيل، فلا غرابة أن رأينا القرآن الكريم يطلق اسم النساء على سورة طويلة فيه ويخصهن بسور المجادلة والممتحنة والنور والطلاق.

ولقد جسدت المرأة الصحابية في عصر الرسالة النموذج القرآني خير تجسيد، فكانت - قوية - تمام القوة في حمل الرسالة، - فاضلة - كل الفضل في علاقاتها الأسرية والاجتماعية وعفتها الأخلاقية. ولقد تعددت مظاهر - قوتها - بتعدد ميادين الحياة؛ فأول مسلم كان امرأة هي خديجة، وأول شهيد في الإسلام كان امرأة هي سمية، وأول عالم في مدرسة النبوة كان امرأة هي عائشة، وأول مدير مخبرات نظم هجرة الرسول ورتب سلامته وعدته كان امرأة هي أسماء، وأول مسلم من الفرس كان امرأة حيث روى ابن حجر في الإصابة (ج ٤، ص ٣٢٩) أن سلمان الفارسي قال: لما قدمت المدينة رأيت أصبهانية - أي من أصبهان - كانت قد أسلمت قبل فسألته عن رسول الله فهي التي دلّني عليه، وأول مسلم من الأفارقة كان امرأة هي سمية التي جمعت بين السبق

والشهادة. وعلى أيد النساء المؤمنات أسلم كبار الصحابة كما حدث لعمر بن الخطاب الذي تلقى الدعوة بنجاح من أخته فاطمة، وكما حدث لعثمان بن عفان الذي أسلم على يد قريبته سعدة بنت كريب - كما يروي ابن حجر في كتاب الإصابة في أخبار الصحابة (ج ٤، ص ٣٢٨)، وكما حدث مع عبد الله بن عباس الذي تلقى الدعوة من أمه أم الفضل وكانا من المستضعفين في مكة، وكما حدث مع علي بن أبي طالب الذي لقي التشجيع للالتحاق برسول الله ﷺ من والدته فاطمة بنت أسد في الوقت الذي ظل والده حبيس أغلال تقاليد الشرك، مثقلاً بأصاره حتى وفاته دون إسلام.

وفي الوقت الذي كان فيه أبو جهل وعقبة بن أبى معيط وأبو سفيان يقودون مقاومة الإسلام ويضطهدون أتباعه كانت بناتهم يستأجرن الرواحل والأدلة ثم يخرجن مهاجرات إلى الحبشة والمدينة المنورة وهن لم يتجاوزن العشرين من العمر كما فعلت أم حبيبة بنت أبى سفيان، وأم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط.

وكانت هناك المجاهدات السابقات من أمثال أم عمار، وأم سلمة، وصفية بنت عبد المطلب ومئات الصحابيات اللاتي خصص ابن سعد المجلد الثامن من كتابه طبقات الصحابة لهن ثم بخل المؤرخون الإسلاميون على تفصيل سيرهن حين جعلوا تاريخ الإسلام تاريخ ذكور. وكان هناك الملمات - المربيات - من أمثال الشفاء بنت عبد الله التي هاجرت إلى المدينة لتقف إلى جانب الرسول ﷺ وتختص بتعليم النساء الخط والكتابة والطب، ثم لتشارك بعده في السياسة والإدارة فتتولى منصب الحسبة في زمن الخليفة عمر بن الخطاب وهو منصب يقابل - في زماننا - منصب عدة وزارات هي وزارة الداخلية، ووزارة الرعاية الاجتماعية، ووزارة الثقافة، وكانت هناك المستشارات الحكيمات في مواقف التأزم كما فعلت أم سلمة التي أشارت على الرسول ﷺ بعد احتجاج المسلمين على شروط صلح الحديبية أن ينحر هديه ويتحلل من إحرامه فيتبعه الجميع؛ فكان ما أشارت به وتوقعت نتيجته، وكانت هناك المناقشات في مجالس العلم واستنباط الفقه في مسجد الرسول ﷺ في أثناء حياته، وفي زمن خلفائه الراشدين؛ وكانت هناك المرافقات لجيوش الجهاد اللاتي نظمن المستشفيات العسكرية المتنقلة والفرق المساندة.

واستمرت المرأة الصحابية سباقة في حمل مسؤولياتها، جريئة في أقوالها وأفعالها والتعبير عن حاجاتها - حتى عن حاجتها إلى الزواج واختيار من ترى فيه الأهلية - لا يوقف إرادتها عن قول الحق وفعله سطوة خليفة، أو مهابة قريب، أو نفوذ مسئول إلا ما

كان من طاعتها لله وخشيته. وكانت (فاضلة) في تبعلها وإسباغ السعادة والسكن وإشاعة المودة والرحمة في أسرتها؛ تؤدي لزوجها وبنيتها وأرحامها حق الله دون تردد أو حساب. وفي كل عصر أحكمت حرمان التجديد والإصلاح إعداد المرأة المسلمة؛ كانت تخرج نماذج تتصف بالقوة والفضل سواء.

وفي الفصول التي أوردتها في كتابي - هكذا ظهر جيل صلاح الدين وهكذا عادت القدس - وعرضت فيها دور المرأة المسلمة في إخراج جيل نور الدين وصلاح الدين؛ بينت كيف أن الإعداد التربوي المحكم أدى إلى بروز شخصيات نسائية تتصف (بالقوة والفضل) من أمثال السيدة خاصة العلماء بنت المبارك والسيدة شمس الضحى، وفاطمة الجوزدانية، وشهادة بنت أبي نصر، ثم كيف استمرت تلميذاتهن إلى جانب رجال جيل الجهاد؛ كما فعلت زمرد خاتون زوجة عماد الدين زنكي، والسيدة عصمت الدين خاتون زوجة نور الدين، والسيدة فاطمة بنت سعد الخير زوجة علي بن نجا وأمثالهن من جيل الجهاد. ويقيني أن جيل نور الدين وصلاح الدين ما كان بقدرته تحقيق المنجزات التي قام بها لو لم تخرج مدراس الإصلاح ذلك الجيل من النساء اللاتي ارتفعن إلى مستوى المسؤولية والوعي بالتحديات المعاصرة.

ومن هذا النموذج القرآني والتطبيقات المؤمنة في عصر النبوة والخلافة الراشدة استلهم الشاعر الإسلامي جلال الدين الرومي مواصفاته في الزوجة التي يريدها حين كتب يقول:

"إنك زوجتي! والزوجة لابد لها أن تتفق مع الزوج في الصفاء حتى تحيى الأمور وفق مصلحتهما!

فالزوجان يجب أن يكون كل منهما على مثال الآخر، ألا فلتأمل زوجين من الأحذية أو النعال؟ فلو أن واحدا من النعلين ضاق بقدمك فلا نفع لهذين النعلين عندك!

وهل بين مصراعي الباب واحد صغير وآخر كبير؟

أم رأيت ذئبة اقترنت بأسد الغاب؟

وليس يستقيم فوق ظهر الجمل زوجان من الحقائق إحداها صغير والأخرى كاملة الاتساع.

إنني أسير بقلب قوي نحو القناعة، فلماذا تذهين أنت إلى الشناعة؟"

في ضوء ما تقدم من استعراض لنموذج المرأة القرآني وتطبيقاته الحكيمة لعلي لا أصدم القارئ إذا قلت أن نموذج المرأة القائم في المجتمعات الحاضرة لم يعد ملائماً لا في الغرب الأوروبي والأمريكي، ولا في الشرق العربي الإسلامي وغير الإسلامي، وأن كلا النموذجين مرفوض من أهله وذويه في مجتمعات الأقطار الحديثة - أقطار تفجر المعرفة، وطور العالمية الذي تهدمت فيه الحدود بين الثقافات والقيم وتطبيقاتها في الاجتماع والسلوك.

إن النظر في تاريخ المرأة يشير إلى أن النساء ثلاثة أصناف:

الأول؛ المرأة الفاضلة - القوية. وهو نموذج المرأة الصحابية التي شاركت الصحابي مسئولياته وجهاده في جميع الميادين.

والثاني؛ المرأة الفاضلة - الضعيفة، وهو نموذج غالب النساء اللاتي تحكمهن التقاليد والأعراف العصبية في الأقطار العربية والإسلامية. وهو أيضاً نموذج المرأة عند كثير من الإسلاميين المعاصرين الذين يحاربون الوأد الجسدي للمرأة ويصرّون على بقاء الوأد الاجتماعي.

والثالث؛ المرأة القوية - غير الفاضلة، وهو النموذج الغالب على المرأة الغربية ومن اقتدى بها في الأقطار الأخرى ومنها الأقطار العربية والإسلامية. والنهضات لا تقوم، والنجاح لا يتحقق إلا برجل قوي - فاضل، وامرأة قوية - فاضلة.

إن المرأة سواء بصورتها التقليدية أو الحديثة التي أفرزتها المجتمعات الرأسمالية وحضارة " الإنتاج والاستهلاك " المعاصرة لم تعد صالحة لحمل مسئولياتها وذلك لسببين:

السبب الأول؛ أن المرأة التقليدية نموذج مغترب في ماضي البادية والريف، غائب عن حاجات الحاضر وتحدياته التربوية والثقافية والاجتماعية والتكنولوجية والصحية، والعلاقة في أسرتها - علاقة عمودية - تقوم على رجل يهيمن هيمنة مطلقة بسبب ذكوريته، وامرأة مستضعفة استضعافاً مطلقاً بسبب أنوثتها. وأساس التوجيه في هذه الأسرة أوامر غير مفهومة ولا مبررة؛ ولذلك يتحيز الأبناء والبنات فيها الفرص للانعتاق من " أغلالها " و " آصارها " الصارمة، وهذا النموذج من المرأة أسرتها في انحسار دائم

أمام وسائل الاتصال الحديثة، وبرامج التحديث، ومخططات العولمة التي تهددها بالتمزق والتحول إلى أكوام من الرقيق الأبيض، والعمالة، وعارضات الأزياء، والخدمة الرخيصة في أسواق الاستهلاك التي يقيمها وكلاء الشركات العالمية في الأقطار العربية والإسلامية.

والسبب الثاني؛ أن المرأة الحديثة سلعة تجارية في نظام الاقتصاد الرأسمالي، أو اقتصاد السحت كما يسميه القرآن الكريم – ومكانتها الاجتماعية تميل لصالح مكان العمل أكثر من البيت؛ ولذلك صار يتجاذب المرأة علاقتان: علاقة أفقية مضطربة مع زوج فقد قوامته إما بسبب قلة معرفته وإما بسبب انحسار إنفاقه ومكانته، وعلاقة عمودية مع رئيس عمل أو مجموعة من الرؤساء يتحكمون بمصير المرأة الوظيفي وراتبها المالي، وعلاقتها السنوية، وهذه علاقة لم تحرر المرأة كما يزعم سدنة الرأسمالية وكتابها، وإنما أجبرتها على تحويل طاعتها وزينتها وحسن تبعها إلى مكان العمل حيث يتمتع الرئيس بغالب – وأحيانا بجميع – ما كان يتمتع به زوج البيت، بينما لم يبق لزوج البيت إلا الكسل والضجر ورثاة الشكل والسأم والعبوس ومريول المطبخ المنفوش والشعر المنكوش، ولم يبق للبنات والبنين إلا دور الحضانة ورياض الأطفال التي تنشئهم على ثقافة القطيع، وبسبب ذلك كله يتقرر تماسك الأسرة الحديثة طبقا لمحصلة التجاذب المتضاد بين متطلبات رئيس العمل من ناحية وبين متطلبات زوج البيت من ناحية أخرى. ولقد أدرك الروائي الأمريكي – فيث بالدوين Faith Baldwin – طبيعة هذا الاضطراب الذي أصاب الأسرة الحديثة فكتب عام ١٩٢٩م روايته – زوجة المكتب The Office Wife – والتي أعيد طبعها عام ١٩٩٣م. وهو أيضا ما أدركته الباحثة الاجتماعية البروفيسورة – تری ابتر Terri Apter – حين أعطت كتابها هذا العنوان الساخر: النساء العاملات ليس لهن أزواج أو Working Women Don't have Wives.

لذلك كله تظل المرأة الموصوفة بالقوة والفضل هدفًا تربويًا عالميًا ومطلبًا إصلاحيًا في مجتمعات العالم المعاصر كلها. ولكن هذا النموذج النسائي – القرآني لن يبرز للوجود إلا بنظام تربوي محكم الأصول والتطبيقات، وهو ما وضعت لبنته الأولى باحثنا الدكتور حفصة منشي في أطروحتها عن أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة، وبذلك سنت سنة حسنة أسأل الله أن يجعل لها حسناتها وحسنات من يعملن بها.

ولكن لعلي أصدم القارئ حين أقول: إن كلا الفريقين من الباحثين في قضايا المرأة: فريق الإسلاميين، وفريق الحداثيين لما يزالا بعيدين عن الوعي بحقيقة المشكلة التي

يعالجونها وكتبوا عنها مئات الكتب وآلاف المقالات؛ لأن كلا الفريقين لا يتمتع بالعقلية المبتكرة القادرة على النظر إلى المشكلة نظرة علمية - موضوعية وما زال يستورد نموذج المرأة أو يقلد فيه. الأول يستورد من الغرب الحديث نموذج المرأة التي توصف بالتححر لأنها تتمرد على الأخلاق والقيم المؤصلة، وهو في استيراده لا يستورد جميع النماذج القائمة في المجتمعات الغربية؛ وإنما يقتصر على النموذج الذي تصدره مؤسسات الثقافة والإعلام العاملة في خدمة الرأسمالية الدولية وأسواقها. والثاني يستورد من الماضي الإسلامي كله محصلة نموذج المرأة الذي أفرزته أخلاط التصورات التي اختلط فيها الفقه الصائب مع الفقه الخاطيء ومع الأعراف والتقاليد المنحدرة عبر عصور الازدهار والجمود سواء. ولا فرق بين الفريقين؛ لأن الفريق الأول يقلد الجديد المستورد، والثاني يقلد القديم الموروث ولا فرق بين التقليد القديم والتقليد الجديد، فكلا النوعين تعطيل للعقل وتكريس للجمود وإن اختلفا في الأزمنة والأمكنة.

إن أزمة المثقف والمفكر والعالم والفقهاء في الأقطار العربية والإسلامية المعاصرة أن الواحد منهم ما زال حبيس التلقين والتقليد في كل أطروحاته الفكرية والثقافية والعلمية، وأنه ما زال عاجزا عن قراءة كتاب الآفاق والأنفس، طفلا على موائد المعرفة؛ يجلس على طاولة الدرس جاهزا لاستظهار ما يلقيه عليه المعلم إن كان تلميذا أو طالبا، وما تلقيه أجهزة الإعلام إن كان مواطنا، وما ينحدر من الماضي إن كان متدينا، وما يصدر ويستورد من الغرب والشرق إن كان مثقفا أو متعلما. فهو متسول ينتظر الأفكار والتقارير لتقدم له مطبوخة مضموجة ثم يجترها في دفتر الدرس أو الصحيفة أو الكتاب أو المحاضرة أو الحديث التلفزيوني. يلقيها المقلد القديم بمنهج - الكنتي - أي الذي يروي: كان السلف، وكان الأجداد، وكانوا.. وكانوا.. ولا شيء غير "كانوا"، ويلقيها المقلد الجديد بمنهج - العندي - أي الذي يقول لا يتوقف عن ترديد: عند أوروبا، وعند أمريكا، وعند ديوي، وعند ماركس، وعند دور كايم، عند ماركس وعند.. وعند.. ولا شيء غير هذه - العنديات - المنقولات والمترجمات.

هذه الإشكالية الفكرية جعلتني أشك في كل ما درسته على مقاعد الدرس، ودفعني للانزواء في المدينة المنورة ومكة المكرمة مدة خمسة عشر عاما أراجع ما في نفسي وأشكال تفكيري ومحتويات رأسي. وفي خضم هذه المراجعة حاولت التحرر من منهج "الكنتيين" ومنهج "العنديين" في البحث عن نموذج الإنسان القرآني وتطبيقاته التاريخية ومنه

نموذج المرأة. وفي خضم مراجعتي وتفاعلي الفكري والوجداني مع قضية المرأة كنت أدرس مجموعة من الطالبات الفضليات في جامعة الملك عبد العزيز وجامعة أم القرى لمرحلة الماجستير والدكتوراة أصول التربية الإسلامية، ونظريتها وأهدافها ومناهجها، وكان بين أولئك الطالبات الفضليات الطالبة - حفصة أحمد منشي - والدكتورة في الوقت الحاضر، ولكم سرني تيقظها العقلي وحماسها العلمي وتفاعلها مع طروحاتي عن نموذج الإنسان المسلم والمرأة المسلمة، وكان من ثمرة هذا التفاعل أن أشرفت على أطروحتها لنيل الدكتوراة التي اختارت موضوعها ليكون عن - أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة -. قبلت المهمة مسرورا ومضيت مع - الطالبة حفصة - وهي تكتب فصول أطروحتها فصلا فصلا، وتتصدى للبحث في هذا الموضوع المليء طريقه بأفواج المأسورين للأعراف والتقاليد الذين يخطبون ويكتبون ويحاضرون عن تحرير الإسلام للمرأة تاريخيا ويصرون على استمرار وأدها اجتماعيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا. وحتى إذا جاء وقت مناقشة الأطروحة أثبتت صاحبته - بجدارة - أنها باحثة اجتهدت في قراءة آيات الله في الكتاب وآياته في الآفاق والأنفس وقدمت الدليل تلو الدليل على أن نموذج المرأة المسلمة في القرآن الكريم هو مطلب عالمي للنساء في مجتمعات العالم كلها بعد أن أرهقهن نموذج الرأسمالية، ودفعن الثمن غاليا من إنسانيتهن وحرمتهن وفطرتهن وصرن سلعة من سلع اقتصاد السحت ووسائل الدعاية والتسويق وفنون اللهو، ودرأت المقولة التي تقول: إنه لا يصلح للمرأة أن تخرج من بيتها إلا مرتين: مرة إلى بيت الزوج ومرة إلى القبر. وفندت قول الذين لا حجة لهم إلا أنهم وجدوا آباءهم على نموذج من المرأة وأده الآباء اجتماعيا وأبقوا عليه جسديا.

ومرت المناقشة واجتازتها الطالبة حفصة بتفوق نال إعجاب المناقشين والحضور سواء، وقدمت نموذجا صالحا لأخواتها السائرات في الطريق نفسه. واليوم وقد يسر الله سبحانه طباعة الكتاب فإن من عظيم اعتزازي وكبير سروري أن أكتب هذه المقدمة لعمل شريف من أعمال ابنة من بنات الفكر والتربية، وداعيا كل امرأة تبحث عن إنسانيتها وتتطلع إلى التحرر الصحيح أن تلتحق بهذا الركب النسائي المؤمن.

جزى الله الدكتورة حفصة خير الجزاء وبارك لها في باكورة أعمالها، وعسى أن تكون طليعة لأخواتها اللاتي تركتهن خلفي في مكة وجدة والطائف، أذكر منهن على سبيل المثال وليس الحصر الدكتورة عائشة الجلال، والدكتورة ابتسام جفري، والدكتورة صافيناز

غنيمة، والطالبة بدرية البسام والمرشحة للدكتوراه عواطف الحسيني، وجميلة السقا وغيرهن ممن لا يتسع المقام لسرد أسمائهن، ودعائي إلى الله أن يفتح قلوب رجالهن من الآباء والإخوة والأزواج للوقوف إلى جانبهن كما وقف إلى جانب الدكتورة حفصة إختوتها وزوجها الفاضل؛ لأنهن - حسب خبرتي - خميرة صالحة للنموذج العالمي للمرأة المسلمة التي ستقود طلائع المرأة - الإنسان - في عصر العولمة التجارية، والله سبحانه يتولى جهود المؤمنات القانتات العابدات المجاهدات بالولاية والرعاية إنه نعم المولى ونعم النصير.

د. ماجد عرسان الكيلاني

أستاذ التربية الإسلامية والتربية الدولية

في جامعة الملك عبد العزيز وجامعة

أم القرى سابقا وجامعة الشارقة حاليا.

مقدمة

الحمد لله الذي جعل مسئولية المرأة في نطاق ما وهبها من "وسع" أو استعدادات وقدرات، وميزها عن الرجل بخصائص الأنوثة والصفات. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن من المعالم البارزة في تاريخ الإسلام، ما نجده من عظمة في الدور الذي قامت به المرأة الصحابية، وشمول هذا الدور وأصالته ومعاصرته؛ فقد كان أول مسلم استجاب لدعوة الرسول ﷺ امرأة وهي خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، وكان أول شهيد في الإسلام؛ امرأة وهي سمية بنت خياط زوجة ياسر وأم عمار رضي الله عنهما، وكان أبرز عالم نال شهادة الأستاذية من مدرسة الرسول ﷺ؛ امرأة وهي عائشة رضي الله عنها.

كما كانت المرأة شريكا عميق التأثير في مسيرة الدعوة والجهاد وبناء المجتمع. وخلال ذلك برزت شخصيات نسائية متميزة من أمثال الخنساء، وأسماء بنت أبي بكر الصديق، وصفية بنت عبد المطلب، والشفاء بنت عبد الله، وغيرهن رضي الله عنهن أجمعين.

ولم تكن هذه المشاركة محصورة في نفر محدود من النساء، وإنما كانت ظاهرة عامة جسدها جيل الصحابيات في عصر النبوة والخلافة الراشدة، حيث شاركن في مسيرة الدعوة والبناء.

ثم بدأ المد الإسلامي خارج شبه الجزيرة العربية، فاستمرت المرأة المسلمة في أداء الدور نفسه، حيث برزت شخصيات من أمثال خولة بنت الأزور، وسكينة بنت الحسين وغيرهن.

وكانت السمة العامة التي تلخص هذه المشاركة الجهادية والعملية للنساء؛ أن المرأة المسلمة كانت توازن موازنة دقيقة رائعة بين دورها الأسري ودورها الاجتماعي؛ فمثلا كانت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها - وهي تقوم بدورها الأسري - تحمل العلف على رأسها من خارج المدينة لتقدمه لفرس زوجها الزبير بن العوام رضي الله عنه، ولكنها - في دورها الاجتماعي - كانت تتصب سندا قويا، وحصنا منيعا يمد ولدها عبد الله رضي الله عنه بالشجاعة، والثبات على المبدأ؛ حيث نجدها غداة قتله، وفي آخر لقاء بينها وبينه تقول له:

" يا بني ما أحب أن أموت حتى آتي على أحد طرفيك، إما أن تملك؛ فتقر بذلك عيني، وإما أن تقتل فأحتسبك..... يا بني، إياك أن تعطي خصلة من دينك مخافة القتل "(الكاندهلوي، د.ت، ج ١، ص ٢٧٥).

هذه الظاهرة البارزة لدور المرأة المسلمة في عصر الرسالة وعصر الخلافة الراشدة؛ تدل على أنه كان هناك نظام تربوي ذو أصول تربوية شاملة، جسدت (أصالة) التعاليم الإسلامية في شخصية المرأة المسلمة، وهياتها للمشاركة الفعالة الكاملة في مواجهة التحديات، وتلبية الحاجات التي أفرزتها أحداث عصرها الذي عاشت فيه، وجعلت لها صفة مميزة بين نساء الحضارات، وهي أنها (امرأة قوية- فاضلة) ^(١).

ولا غرابة في هذه الصفة؛ لأن النظر في الأصول العقدية يبين أن الإسلام قد حرص على تعليم المرأة حرصه على تعليم الرجل، ويؤكد ذلك قوله ﷺ فيها رواه أنس بن مالك رحمته الله: " طلب العلم فريضة على كل مسلم " (ابن ماجه، د.ت، ج ١، المقدمة، ص ٨١)، ويؤكد ذلك طلبه عليه السلام من الشفاء بنت عبد الله أن تعلم زوجها حفصة حين قال لها: "ألا تعلمين هذه رقية النملة كما علمتها الكتابة. " (أبو داود، د.ت، ج ٢، الطب/ ٣٨٨٧، ص ١١).

ونجد أن نصوص القرآن الكريم عندما تخاطب المسلمين بأمر أو تكليف؛ فإنها لا تخاطب الرجل وحده، بل تخاطب كلا من الرجل والمرأة، وهذا ما دفع بالمسلمات الأوائل رضي الله عنهن إلى الاهتمام بتعاليم الدين الجديد، وطلبهن من الرسول ﷺ أن يخصصهن بالتعليم، فجعل لهن يوماً يعظهن فيه ويسألنه عما يعن لهن من أمور (البخاري، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ج ١، العلم/ ٣٦، ص ٣٤).

وفي عهد الخلفاء الراشدين، كانت النساء يشتركن مع الجمهور في سماع خطب الخلفاء، ويحضرن المواعظ والخطب التي كان يلقيها علي بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس رحمتهما الله وغيرهما، كما أقبلن على رواية الحديث خاصة، إقبالا عظيما، حتى وجدنا ابن سعد يشير في الجزء الثامن من طبقاته إلى أكثر من سبعائة امرأة روين عن رسول الله ﷺ.

(١) هذا المصطلح مأخوذ عن الدكتور ماجد الكيلاني، (انظر مؤسسات التربية الإسلامية، مسودة).

أو عن الثقافات من أصحابه.

واستمر تعليم النساء بعد العهد الراشدي سنة حسنة تتوارثها الأجيال، حيث كان الأمراء يعلمون بناتهم داخل القصور، بينما كان عامة الشعب يعلمونهن في الكتاتيب. (الأهواني، د.ت، ص ١٠٤).

ثم خلف صدر الإسلام وعصور الازدهار أجيال تأثرت بثقافة عصبية الجاهلية وعاداتها وتقاليدها، ونتيجة لذلك؛ انحسر دور المرأة المسلمة في دائرة الأخلاق الفردية وشبكة العلاقات الأسرية- دون دورها الاجتماعي- الأمر الذي انعكس على مفهوم تربية المرأة وتعليمها؛ حتى اعتبر تعليم المرأة الكتابة والخط من دواعي إفسادها (القاسبي، د.ت، ص ٢٨٩).

ويرى الأهواني أن الخوف من فساد البنات هو الذي دفع بالمسلمين إلى الامتناع عن تعليم البنات في عصور الركود والتقليد (الأهواني، د.ت، ص ١٨١)، بينما يرى البعض أن السبب في ذلك يرجع إلى صعوبة الرحيل في طلب العلم على النساء وهو ما كان يقوم به طلاب العلم (شليبي، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م، ص ٤٢٩)، ولكن الحقيقة التي ينبئ عنها الواقع، هي أن تقاليد العصبية القبلية التي تجعل الفكر يدور في فلك القوة قد تدخلت مرة ثانية وجعلت تعليم المرأة يتقلص كثيرا عما كان عليه في صدر الإسلام وبسرعة، حيث إنحصر في شيء من القرآن وعلوم الدين قراءة دون كتابة، وذلك في الكتاتيب التي استمرت حتى افتتاح المدارس وما بعده في أكثر البلاد الإسلامية في القرن العشرين الميلادي.

ومما يدل على انحسار تعليم المرأة في العصور المتأخرة؛ ما ذكرته المصادر من أن تعليم المرأة كان من ضمن المحظورات في أواخر العصر العثماني، وأنه في حين كان القانون يقيّد تعليم المرأة الغربية فقد كان القانون في البلاد الإسلامية أقل تقييدا، إلا أن العرف كان أكثر تقييدا من القانون. (تاريخ البشرية، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، مج ٦، ج ٢، ص ٢١٣-٢١٧).

ومنذ القرن الماضي أحس نفر من المهتمين بضرورة تعليم المرأة المسلمة وتحريرها من

سجن تقاليد العصبية الذي سجن فيه، ومنهم رفاة الطهطاوي^(١) وقاسم أمين^(٢) وغيرهما.

إلا أن هذه الصيحات الإصلاحية كانت تعاني من أمرين: الأول؛ عدم وضوح الأصول التي يجب أن يقوم عليها تعليم المرأة المسلمة، والثاني؛ تأثر أصحابها بالتمدن الغربي في اتجاههم نحو المرأة، دون إدراك للبون الشاسع بين المجتمع الغربي والمجتمع الإسلامي من حيث الجذور والنشأة والقيم.

والواقع أن نموذج تعليم المرأة الغربية فيه خطر كبير؛ لأنه لا يستمد أصوله من اعتبارات إنسانية المرأة، وإنما يقوم على أصول اقتصادية - صناعية أملت ظروف الثورة الصناعية التي تبلورت منذ القرن التاسع عشر، والتي واكبتها الفلسفة التربوية التي تقول بأن التعليم يمثل استثمارا اقتصاديا. وتعمقت الحاجة لهذه الأصول في القرن العشرين الذي شهد حربين عالميتين أهلك الكثير من الرجال، وجعلت الحاجة ماسة إلى عمل النساء والأطفال، وكان مما أغرى رجال الصناعة بدعم هذا النوع من التعليم؛ رخص أجور النساء وقلة المشكلات التي تصاحب عملهن (Spring, 1986, pp.80-94).

وكان من نتائج الثورة الصناعية ظهور حركة الاستعمار التي استهدفت السيطرة على مصادر المواد الخام اللازمة للصناعة وفتح الأسواق للمنتجات الصناعية. ولتحقيق هذين الهدفين عملت الإدارات الاستعمارية في المناطق المستعمرة على السيطرة على نظم التعليم، وصبغه بصبغة تلبي احتياجات المستعمر دون اهتمام يذكر بحاجة المجتمع وأفراده (تاريخ البشرية، ١٣٩١هـ / ١٩٧١م، مج ٦، ج ٢، ص ٢٢٨-٣٦٢).

ومن ثم أصبحت أصول تعليم المرأة تعدها لتصبح أداة من أدوات الاستهلاك في

(١) عالم مصري من أركان نهضة مصر العلمية في العصر الحديث. ولد في طهطا... وأرسلته الحكومة المصرية إماما للصلاة والوعظ في بعثة من الشباب أوفدها إلى أوروبا لتلقى العلوم الحديثة، فدرس الفرنسية وثقف الجغرافيا والتاريخ. من كتبه: قلائد الفاخر في غرائب عادات الأوائل والأواخر، تعريب القانون المدني الفرنسي، المرشد الأمين وغيرها. توفي بالقاهرة. " (الزركلي، د.ت، ج ٣، ص ٥٥).

(٢) قاسم بن محمد أمين المصري: كاتب، باحث. اشتهر بمناصره للمرأة ودفاعه عن حريتها. كردي الأصل. ولد ببلدة " طرة " بمصر. انتقل إلى الإسكندرية. فنشأ وتعلم بها ثم بالقاهرة، وأكمل دراسة الحقوق في فرنسا، وعاد إلى مصر سنة ١٨٨٥م، فكان وكيلا للنائب العمومي بالمحكمة المختلطة، فمستشارا بمحكمة الاستئناف. توفي بالقاهرة. من كتبه: كلمات قاسم بك أمين، تحرير المرأة، المرأة الجديدة. (الزركلي، د.ت، ج ٦، ص ١٩).

البلاد المستعمرة. وانسجاما مع هذا الهدف، أصبحت الموضوعات التى اشتمل عليها تعليم المرأة؛ تركز على دراسات أو تخصصات تدفع بالمرأة إلى أعمال اجتماعية معينة مثل: الاقتصاد المنزلي وتربية الأطفال، ثم قدمت موضوعات مثل الطباعة، وتنمية المهارات المكتبية، وذلك لبنات الطبقة العاملة اللاتي لم يكن يسمح لهن بمواصلة تعليمهن العالي الذي كان مقصورا على بنات الطبقتين المتوسطة والعالية (*The International Encyclopedia of Education*, 1985, Vol.9 pp. 5560-5561).

وقد ترتب على افتقار العالم الإسلامى المعاصر لنظرية تربوية واضحة تحدد الأصول التي يجب أن يقوم عليها تعليم المرأة أمران:

الأول؛ اهتمام القائمين على هذا التعليم بالشكل والكم دون الكيف والمضمون.

والثاني؛ اتخاذ نمط التعليم الغربى أنموذجا يحتذى به في تعليم المرأة. وقد تجسد هذا التقليد في إرسال الأسر العالية بناتهن إلى المدارس الأجنبية، وإرسال البعثات إلى الأقطار الأوروبية، وفي بساطة المشروعات التربوية التى نادى بها عدد من النساء اللاتي تبوأن مكانة في المجتمع مثل زينب فواز^(١) السيدة المصرية التى كتبت في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين مقالات كثيرة؛ انتشرت في معظم الأقطار الإسلامية، وكانت تنادي فيها بإتاحة فرص التعليم للجميع، ومثلها ملك حفنى ناصف^(٢) التى تخرجت ضمن أول دفعة لأول مدرسة ابتدائية حكومية في مصر وذلك في عام ١٣١٨هـ /

(١) كاتبة أدبية وشاعرة، ولدت في تبينين، وفي العاشرة انتقلت إلى الإسكندرية وبدأت في دراسة القراءة والكتابة على الأستاذ محمد شبلي. ثم تلقت الصرف والبيان والعروض والتاريخ على الأستاذ حسن حسني باشا الطويراني صاحب جريدة النيل، والإنشاء والنحو على يد محيي الدين النبهاني، وانصرفت بعد ذلك إلى نظم الشعر. ولها مقالات في الصحف والمجلات تدل على إمكاناتها الأدبية ولها مؤلفات أهمها: الدر المنثور في طبقات ربات الخدور وهو ترجمة لشهيرات النساء في العالم. (كحالة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج٢، ص ٨٢-٩١).

(٢) كاتبة اجتماعية كبيرة ولدت بالقاهرة: فتلقت مبادئ العلوم في مدارس أوليه مختلفة ثم دخلت المدرسة السنية في عام ١٨٩٣م وحصلت على الشهادة الابتدائية عام ١٩٠٠م ضمن أول دفعة حصلت على تلك الشهادة، ثم حصلت على شهادتها العالية من المدرسة نفسها واشتغلت بعد ذلك بالتعليم في مدارس البنات الأميرية. أسست اتحاد النساء التهذيبي، وتوفيت عام ١٩١٨م. قال عنها أحمد لطفى السيد باشا: "إنها أكتبت سيدة = قرأنا كتاباتها في عصرنا الحاضر..." وقال عنها أحمد زكي باشا: "إنها أعادت لنا ذلك العصر الذهبي الذي كانت فيه ذوات العصائب ينافسن أرباب العائيم في ميدان الكتابة والخطابة". من آثارها: النسائيات، حقوق النساء، رسالتها إلى المؤتمر المصري المنعقد عام ١٩١١م (كحالة، ١٣٩٧هـ / ١٩٧٧م، ج٥، ص ٧٤-٩٧).

١٩٠٠م (فرج ١٤٠٩هـ / ١٩٨٩م، ص ٨١-٨٥).

وكانت ملك تدعو إلى أن تسارع المرأة إلى التربية وإلى التعليم الصحيح لا أن تتعلق بقشور المدنية الأوروبية. إلا أن ما حدث بعد ذلك هو أن الهيئات المشرفة على تعليم المرأة المصرية قد اختارت اتجاه قاسم أمين؛ حيث عملت على تأسيس تعليم المرأة المسلمة المعاصرة على أصول مستمدة من الغرب، وتبعتها في ذلك غالبية الدول الإسلامية.

ومع أن الجهود التي بذلت وتبذل تدل على كبير عناية بتعليم المرأة إلا أن الحاجة قائمة لتداعي المختصين التربويين من أجل إجراء البحوث التي تبلور أصول تربية المرأة المسلمة المعاصرة وذلك نظرا للتغيرات التي سوف نناقشها في أهمية المشكلة، ومن ثم كان هذا الكتاب محاولة للإسهام في تسهيل عودة المرأة المسلمة لتتبوأ مكانها الطبيعي في المجتمع الإسلامي في كل مكان، وهي قادرة على ذلك إذا ما أعدت له من خلال تربية شاملة تتناول جميع جوانب شخصيتها، وتصقل جميع مهاراتها، بحيث تستمد روحها وأصولها من الإسلام، وتستفيد في ذلك من كل مستحدثات العصر.

* * *